الفصل الحادي عشر[1]

حضارة الأندلس (إسبانيا)

حضارة العرب في إسبانيا :[*]

كانت إسبانية النصرانية ذات رخاء قليل وثقافة لا تلائم غير الأجلاف في زمن ملوك قوط، ولم يكد العرب يتمون فتحها حتى بدأوا يقومون برسالة الحضارة فيها، فاستطاعوا في أقل من قرن أن يحيوا ميت الأرضين ويعمروا خرب المدن، ويقيموا أفخم المباني ويوطدوا وثيق الصلات التجارية بالأمم الأخرى، ثم شرعوا يتفرغون لدراسة العلوم والآداب ويترجمون كتب اليونان واللاتين، وينشئون الجامعات التي ظلت وحدها ملجأ للثقافة في أوروبا زمناً طويلاً.

وأخذت حضارة العرب تنهض منذ ارتقاء عبد الرحمن إلى العرش على الخصوص، أي منذ انفصال إسبانية عن المشرق بإعلان خلافة قرطبة في سنة ٧٥٦م، فغدت قرطبة بالحقيقة أرقى مدن العالم القديم مدة ثلاثة قرون.

ولم يكد عبد الرحمن يقبض على زمام الحكم في إسبانية حتى أخذ يسعى في حمل العرب على عد إسبانية وطناً حقيقياً لهم، فأنشأ جامع قرطبة الشهير الذي هو من عجائب الدنيا لتحويل أنظار العرب عن مكة، وصار ينفق دخل بيت المال في إصلاح البلاد وعمرانها بدلاً من إنفاقه في الغزوات البعيدة ثم سار خلفاؤه على سنته في ذلك.

وامتازت حضارة العرب في إسبانية في ذلك الدور بميل العرب الشديد إلى الفنون والآداب والعلوم على الخصوص، وأنشا العرب في كل ناحية مدارس ومكتبات ومختبرات، وترجموا كتب اليونان ودرسوا العلوم الرياضية والفلكية والطبيعية والكيماوية والطبية بنجاح، وسنرى في فصول أخرى أهمية اكتشافاتهم في هذه العلوم المختلفة.

---

(١) د. جوستان لوبون، حضارة العرب، نقله إلى العربية عادل زعيتر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٢م، ص٢٧٣ وما بعدها.

(*) حيث ما ذكر العرب في هذا البحث تعني اللفظة (العرب) تعني (المسلمين).

ولم يكن نشاطهم في الصناعة والتجارة أقل من ذلك، فكانوا يصدرون منتجات المناجم ومعامل الأسلحة ومصانع النسائج والجلود والسكر إلى أفريقية والشرق بواسطة تجار من اليهود والبربر.

وبرع العرب في الزراعة براعتهم في العلوم والصناعات، ولا يوجد في إسبانية الحاضرة من أعمال الري خلا ما أتمه العرب، وأدخل العرب إلى حقول الأندلس الخصبة زراعة قصب السكر والتوت والأرز والقطن والموز... إلخ، وأصبحت إسبانية التي هي صحراء حقيقية في الوقت الحاضر عدا بعض أقسام في جنوبها جنة واسعة بفضل أساليب العرب الزراعية الفنية.

ووجه العرب نشاطهم إلى كل فرع من فروع العلوم والصناعة والفنون، ولم تقل أشغالهم العامة عن أشغال الرومان أهمية، فأكثروا من إنشاء الطرق والجسور والفنادق والمشافي والمساجد في كل مكان.

وظن رئيس الأساقفة الإسباني (اكزيمينيس) أنه بإحراقه مؤخراً ما قدر على جمعه من مخطوطات أعداء دينه (العرب) (ثمانية آلاف كتاب) قد محا ذكرهم من صفحات التاريخ إلى الأبد، ولم يدري أن ما تركه العرب من الآثار التي تملأ بلاد إسبانية غير مؤلفاتهم يكفي لتخليد إسمهم إلى الأبد.

وكانت عاصمة الخلافة قرطبة داراً للعلوم والفنون والصناعة والتجارة، وتستطيع أن تقابلها بعواصم دول أوروبا العظمى، وهي على خلاف قرطبة الحاضرة التي أضحت مقراً للأموات، ومن المؤلم أن كنت أسير عدة ساعات في هذه المدينة الواسعة التي كان يقيم بها مليون شخص قبل أن أصادف ماراً نشيطاً. أجل كان من النصر العظيم أن أحل النصارى الصليب محل الهلال في قرطبة، ولكن الهلال كان يهيمن على أغنى مدن العالم وأجملها وأكثرها إهلاً، فيشرف الصليب اليوم على بقايا تلك الحضارة القويمة التي قوضها عباده من غير أن يقيموا حضارة أخرى مقامها.

وكان نظام الحكم العربي في إسبانية مشابهاً لنظام الحكم الذي تكلمنا عنه في فصل (العرب في بغداد)، أي كان الخليفة وهو وكيل الله في الأرض حاكماً مطلقاً جامعاً لجميع السلطات المدنية والدينية والحربية مع

اختياره مجلساً لإسداء النصح إليه في جميع أمور الدولة. وكان يقوم بحكم الولايات ولاة ينصبهم الخليفة جامعون لمثل سلطاته كلها.

وكان قانون الدولة المدني يستند في نصوصه إلى القرآن وتفسير القرآن، كما نوضح ذلك في فصل آخر؛ فيتخذ القضاة القرآن دستوراً في أحكامهم، وكانت المحاكم على درجتين، فتقوم محاكم الدرجة الثانية (الاستئناف) بإصلاح ما تصدره محاكم الدرجة الأولي من الأحكام.

وكان الخليفة كملوك ذلك العصر غير ذي جيش دائم، وكانت الكتيبة الوحيدة المسلحة على الدوام مؤلفة من حرس ولى الأمر الشخصي الذي يبلغ عدده عشرة رجال أو اثنتي عشر رجلاً[1] وإن كان يستطيع أن يجند كل شخص قادر على حمل السلاح من أبناء الدولة.

وكانت البحرية قوية جداً وتتم بفضلها صلات العرب التجارية بجميع مرافئ أوروبا وآسيا وأفريقيا، وظل العرب وحدهم سادة البحر المتوسط زمناً طويلاً.

وكان دخل بيت المال يقوم على الضرائب والمناجم كما في بغداد، وكانت مناجم الفضة والذهب والزئبق غنية في ذلك الزمن، وكانت الضرائب تتألف من العُشر العيني لمحاصيل أراضي المسلمين ومن الجزية التي يعطيها النصاري واليهود ومن الجمارك والمكوس، فبلغ دخل دولة الخلافة في إسبانية ثلاثمائة مليون إبان عظمتها أي في عهد الحكم الثاني.

وقلنا أن الإمامة الثقافية كانت للعرب في البلاد، وأما العوام فكانوا من البربر ومن سكان البلاد القدماء على الخصوص، وكان باب المناصب مفتوحاً للنصاري، وكان النصاري يستخدمون في الجيش غالباً، ولم يكن توالد المسلمين والنصاري غير قليل، وكانت أم الخليفة عبد الرحمن الثالث نصرانية.

واستطاع العرب أن يحولوا إسبانية مادياً وثقافياً في بضعة قرون، وأن يجعلوها على رأس جميع الممالك الأوربية، ولم يقتصر تحويل العرب لإسبانية

(١) لعل المؤلف قصد عشرة آلاف أو اثنتي عشر ألفا فسقطت كلمة (آلاف أو ألف) عند طبع الأصل الفرنسي (المترجم).

على هذين الأمرين؛ بل أثروا في أخلاق الناس أيضاً فهم الذين علموا الشعوب النصرانية، وإن شئت فقل حاولوا أن يعلموها التسامح الذي هو أثمن صفات الإنسان، وبلغ حلم عرب إسبانية نحو الأهلين المغلوبين مبلغاً كانوا يسمحون به لأسقافتهم أن يعقدوا مؤتمراتهم الدينية، كمؤتمر أشبيلية النصراني الذي عقد في سنة ٧٨٢م، ومؤتمر قرطبة النصراني الذي عقد في سنة ٨٥٢م، وتعد كنائس النصارى الكثيرة التي بنوها أيام الحكم العربي من الأدلة على احترام العرب لمعتقدات الأمم التي خضعت لسلطانهم.

وأسلم كثير من النصاري، ولكنهم لم يسلموا طمعاً في كبير شئ، وهم الذين استعربوا فغدوا هم واليهود مساوين للمسلمين، قادرين مثلهم على تقلد مناصب الدولة، وكانت إسبانية العربية بلد أوروبا الوحيد الذي تمتع اليهود فيه بحماية الدولة ورعايتها فصار عددهم فيه كثيراً جداً.

وكان عرب إسبانية يتصفون بالفروسية المثالية خلا تسامحهم العظيم، وكانوا يرحمون الضعفاء ويرفقون بالمغلوبين ويقفون عند شروطهم وما إلى هذا من الخلال التي اقتبستها الأمم النصرانية بأوروبا منهم مؤخراً، فتؤثر في نفوس الناس تأثيراً لا تؤثره الديانة.

وللفروسية العربية شروطها كما للفروسية الأوروبية التي ظهرت بعدها، فلم يكن المرء ليصير فارساً إلا إذا تحلى بهذه الخصال العشر: (الصلاح والكرامة ورقة الشمائل والقريحة الشعرية والفصاحة والقوة والمهارة في ركوب الخيل والقدرة على استعمال السيف والرمح والنشاب).

ونرى تاريخ العرب في إسبانية حافلاً بالأنباء الدالة على كثرة انتشار تلك الخصال، ومن ذلك أن والى قرطبة لما حاصر مدينة طليطلة في سنة ١١٣٩م التي كانت بيد النصارى أرسلت إليه الملكة (بيرنجر) التي كانت فيها من بلغة أنه لا يليق بفارس بطل شهم كريم أن يحاصر إمراة فارتد القائد العربي من فوره محيياً الملكة.

وذاعت خصال الفروسية تلك بين النصارى ولكن ببطء، ويمكننا أن نتمثل ما كانت عليه الفروسية النصرانية في القرن الحادي عشر عند النظر

إلى أمر السيد (الكنبيطور رودريك الفيفاري). لم يكن هذا البطل الشهير الذي تغني به الشعراء كثيراً سوى رئيس عصابة بالحقيقة، أي كان محل مزايدة فيبيع نفسه من العرب تارة ويبيعها من النصارى تارة أخرى، ومما حدث أن دخل مدينة بلنسية صلحاً فلم يحجم عن شئ حاكمها الهرم على النار ليكرهه على كشف ما كان يظن وجوده في القصر من الكنوز.

قال مسيو (فياردو): إن ذلك الفارس الشهير الذي يثير إسمه ذكريات البطولة هو البطل الشعبي الذي اقتحم المخاطر والأهوال أكثر مما اقتحمه هركول وثيزه وقدماء أنصاف الآلهة مجتمعين.

بيد أنه وإن كان من المؤلم تجريد اسم عظيم من بعض ما اسبغته القرون عليه، لم يوضع التاريخ ليؤيد بأحكامه أقاصيص الأدباء وخيالات الشعراء.

لم يحز رودريك أو روي دياز الفيفاري غير صفات الجندي أي كان رئيس عصابة من المرتزقة قاسياً جشعاً حقوداً شديداً في قوله وعمله، كثير الجلف مستخفاً بالعدل والإنصاف.

وكان نصارى أرغونة أول من أعمل السلاح فيهم لحساب المسلمين الذين منحوه لقب (السيد) فعرف به، ثم باع سيفه من شانشه القوي ليساعده على تجريد ما لإخواته وأخواته من المقاطعات، ثم حالف هذا وذاك محالفة الغادرين، ولم يبال بعهد الأمان الذي قطعه لمدينة ساغونته ومدينة بلنسية فأطعم الكلاب بعض الأسرى، ونكل ببعضهم وحرق بعضاً آخر منهم إكراهاً لهم على كشف كنوزهم.

حقاً أنه أطفأ ما تم له من مجد النصر بما قام به من أعمال الخنز[1] والخسة والإجرام، وإني أحيل القارئ الذي يريد التثبت في مصداق قولي إلى ما قاله مسيو دوزى في مباحثه عن تاريخ عرب إسبانية السياسي والأدبي في القرون الوسطي.

وليس من الإنصاف أن نقسو على السيد الذي لم يعمل بغير ما كانت تبيحه طبائع زمنه، ولكن من الواجب أن نشير إلى تلك الطبائع ليتجلي لنا

(١) خزه يخزه خزاً: غدره اقبح الغدر.

مقدار ما أسدت به الأمة التي عملت على زوال تلك الطبائع من خدمة عظيمة بتأثير تعاليمها التي لا مؤيد لها سوى الرأي.

ويقولون أن الدين يهذب الطبائع، وأذهب إلى هذا الرأي أحياناً، وإن لم يكن التاريخ سوى أدلة قليلة على ذلك؛ وإنما الذى لا ريب فيه هو أن قواعد الفروسية التي جاء بها العرب أدت إلى إصلاح تلك الطبائع أكثر من جميع التعاليم الدينية.

نعم إن إحراق السيد شيخاً ليسلب ماله يبديه لنا وحشاً غير أن طبائع أهل ذلك الزمن كانت تبيح ذلك، وإن كل أمير نصراني كان يقترف مثل ذلك.

ومن ذلك أن دعا الطاغية بطره ملك غرناطة أبا سعيد إلى قصره فأعجبه ما كان يتحلى به الملك أبو سعيد من الجواهر، فلم يرد غير سلبه إياها بقتله غدراً.[1]

فآثام مثل هذه مما لم يقترفه العرب قط، والعرب أحسنوا كثيراً إلى الحضارة بنشرهم من المشاعر في أنحاء العالم ما يحول دون ارتكابها.

واعترف الكتَّاب القليلون الذين درسوا تاريخ العرب بفضلهم الخلقي، وإليك ما قاله العالم الثبت (مسيو سيديو): كان العرب يفوقون النصارى كثيراً في الأخلاق والعلوم والصناعات، وكان من طبائع العرب ما لاتراه في غيرهم من الكرم والإخلاص والرحمة، وكان من طبائعهم التي امتازوا بها في المحافظة على الكرامة ما يؤدي الإفراط إلى المبارزة والشحناء.

وكان ملوك قشتالة ونبرة على علم من صدق العرب وقراهم، ولم يتردد الكثير منهم في المجئ إلى قرطبة ليعالجهم أطباؤها المشهورين، وكان أفقر المسلمين يحافظ على شرف أسرته محافظة أشد الرؤساء صلفاً.

مباني العرب في إسبانية:

استخدم العرب في بدء إقامتهم بإسبانية مهندسين من الروم، ولكن العرب لم يلبثوا أن أثروا بعبقريتهم الفنية في أولئك المهندسين، وبلغ إحياؤهم

(١) أهدي ملك إسبانيا إلى أحد أمراء الانجليز ياقوته حمراء من تلك الجواهر التي سرقت من الملك العربي، وهي الآن من الجواهر التي يزين بها تاج ملكة انجلترا المصون مع الجواهر الملكية الأخرى في (غرفة حل التاج) بلندن فاتيح لي أن أشاهدها.

في أمور الزينة مبلغاً صار يتعذر معه على أقل الناس دقة أن يخلط مبانيهم بالمباني البيزنطية.

ولم يلبث العرب في إسبانية أن تحرروا من النفوذ البيزنطي كإخوانهم في مصر، فاستبدلوا النقوش العربية الممزوجة بالكتابة بالزخرفة الذهبية، وأكثروا كما في المشرق من المتدليات المؤلفة من الأقواس الصغيرة التي يعلو بعضها بعضاً على شكل نخاريب النخل؛ فيكون منظرها ساحراً عجيباً حينما يزين بها داخل إحدى القباب كما في الحمراء، وكانت هذه الأقواس على شكل نعل الفرس الظاهر في البداءة؛ ثم اختلطت بأنواع الأقواس الأخرى البسيطة المصنوعة على رسم البيكارين، والأقواس المفلوقة المصنوعة على رسم البيكارين، والأقواس المنقوشة على شكل الأزهار والأغصان المصنوعة على رسم البكارين... إلخ، وأما الأقواس المجاوزة فقد أهملها العرب تقريباً.

ويعد جامع قرطبة الذي بني في القرن الثامن من الميلاد وبعض المباني في طليطلة من آثار الدور الأول لفن العمارة العربي بإسبانية، وتعدُ منارة لاجيرالدة (لعبة الهواء) الإشبيلية التي أقيمت في القرن الثاني عشر من الميلاد، والقصر الإشبيلي من آثار الدور الأوسط لفن العمارة العربي، ويعد قصر الحمراء الغرناطي الذي شيد في القرن الرابع عشر من الميلاد عنواناً لما انتهي إليه فن العمارة العربي.

وعلى ما في هذه المباني التي أُنشئت في إسبانية في مختلف الأدوار من التباين في الطرز نرى لها طابعاً خاصاً يدل على أصلها لأول وهلة.

ويرى مثل هذا الطابع الخاص في مختلف المباني التي شادها العرب في مختلف الأقطار.